من تراب الطريق! (٢٤٢) العظماء المشردون ! (*)

هذا العنوان ليس من اختيارى - وإنما اختاره الأستاذ عباس العقاد للتعليق على كتاب بعنوان : " كارثة القرم الإسلامية " .. أورده فى مقالات كتابه : " بين الكتب والناس " .. يدعو فى مستهله إلى وجوب أن يطلع قراء اللغة العربية على الحقائق المجهولة من أمر روسيا السوفيتية ورعاياها من مختلف الأقوام والأديان، ولا سيما الرعايا المسلمين .

الكتاب الذى يتناوله العقاد من نحو سبعين سنة، يلم بالمظالم التى أصابت المسلمين على عهد القياصرة ثم على عهد البلاشفة، فلم يختلف ما نزل بهم فى عهد " الماديين التقدميين " عما نزل بهم من جور ومظالم القيصرية فى عصور الجهالة والتعصب .. بل زاد عليه أن الحرب لم تقتصر على محاربتهم للدين وإنما امتدت إلى الوطنية التى تنزع إلى الاستقلال، وهانحن نرى (الآن) أن روسيا السوفيتية لم تصبر على محاربة الأديان بعامة، ولا على تغليق معابدها ومحاصرة كهنتها، فعدلت عما ظنت قدرتها عليه فى شبابها، ثم كان ما رأيناه من نجاح كثير من جمهوريات الاتحاد فى الاستقلال عنه !

ما كتبه العقاد كان قبل هذه الملاحظة الأخيرة بعشرات السنين، توقف فى كتاب " كارثة القرم " عند بعض فصوله التى ذكرت أسماء طائفة من عظماء الروس تحدروا من سلالة الترك المسلمين، بل ولم يكن القيصر

(*) المال ٢٠٠٩/٤/١٣

بوريس غوردونوس من أصل تركى فقط، بل كان ذلك شأن الأسر الأرستقراطية إلى عهد قريب (الذى كتب فيه العقاد) .. يذكر الكتاب أسماء نحو عشرين أسرة كبيرة من هذه الأسرات التى اشتهرت فى المجتمع أو فى السياسة .

الأعجب أن الكتاب كشف عن أن " لينين " زعيم الشيوعية الكبير، ينتمى إلى أصل تركى إسلامى كما جاء فى الجزء الرابع من تحقيقات مجمع التواريخ بأنقرة، وارتد آباؤه عن الإسلام فى عهد القياصرة الأقدمين هربا من القتل والاضطهاد !

لم يقصد الكتاب الذى توقف عنده العقاد إجراء تمحيص لدعوى السلالات، أو لتأييد مفاخر العنصر الطورانى، وإنما أتى بهم للتدليل على قدم الاضطهاد فى الدول الروسية، ويستشهد بالأعلام المشهورين على اضطرار المسلمين منذ أقدم الأزمان إلى التحول عن دينهم، إن لم يتحولوا عن وطنهم، فراراً من مظالم ذلك الاضطهاد !

ما شنه القياصرة فى أخريات أيامهم لإثبات أن دعاة الحرية فى بلادهم ينتمون إلى أصول غير الأصول القومية، يستحضر سؤالا يقول : ماذا بقى إذن من مفاخر القومية الروسية بعد الذين ارتدوا من العظماء إلى أصول الترك أو الجرمان أو اليهود ؟!.. وبماذا تفخر " البلشفية " القومية إذا كان لينين تارة من الترك وتارة من اليهود، وكان تروتسكى يهوديا بلا خلاف، وكان ستالين شركسيا كذلك بلا خلاف ؟!

لو التزم البلاشفة بالمنطق والتناسق لما اكترثوا لتجريد العنصر السلافى من جميع العظماء والمشاهير، لأن كارل ماركس وأتباعه يبرءون - كما هو معلوم - من عصبية الجنس والعنصر واللغة ويعتبرونها بقية من بقايا مجتمعات رأس المال . فليس على المذهب حرج فى انتماء الروس إلى السلافيين أو إلى الطورانيين أو إلى الساميين أو إلى الجرمان، إذا التزم البلاشفة المنطق فى كل ادعاء .

ولكن البلاشفة - فيما يقول العقاد - لا يلتزمون المنطق فى هذه الدعوى على الخصوص، فهم يبذلون فى تزكية العنصر السلافى أضعاف ما بذله القياصرة، ويردون كل اختراع إلى أصل سلافى قديم أو حديث .. فلم يكن " ماركونى " هو صاحب اختراع الناقلات الأثيرية، بل السلافى : اسكندر بوبوف الذى اهتدى للفكرة ١٨٩٥ .. ولم يكن " إديسون " هو صاحب البصيلة الكهربائية، بل السلافى الرائد الروسى لوديجين .. ولم يكن " لا فوازييه " هو صاحب القول ببقاء المادة، بل السلافى ميخائيل لومنسوف الذى سبقه إلى هذه التجارب قبل عشرين سنة .. وهكذا !!

غلبت تزكية العنصر السلافى على محاذير التشبه بالمتعصبين الوطنيين، على ما فى ذلك من تناقضات لتقريرات علمائهم عن أصول الوراثة ومزايا الأجناس والأسر والطبقات !

فلو صح أن جنساً يستأثر بمزايا النبوغ بغض النظر عن تخلف البيئة والمحيط - لصح أيضا أن مزايا النبوغ وراثة ملازمة للسلالة وعلم السلالات المستنكر على علماء غربيين !

مع ظهور النقائض تثبت الحقائق وتذهب الأباطيل !

أو كما قال أبو العلاء المعرى فى إشفاقه على الإنسان أن يرجع إلى الطين فيصنع منه إناءً يحمله المرتحلون من بلد إلى بلد :

لعل إناء منه يصنع مرة فيأكل منه من يشاء ويشرب

ويُحمل من أرض لأرض وما درى فواهاً له بعد البلى يتغرب !